

الدراسات والأبحاث | Research Papers

الاستبدال في لغة القرآن الكريم مقاربة نصية

Substitution in the language of the Noble Qur'an textual approach

علي حفظ الله محمد ناصر^(١) | Ali Hifdallah Mohammed Nasser

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى بيان دور الاستبدال في اتساق النص وانسجامه، وذلك عبر تحليل نماذج من لغة القرآن الكريم وتبسيط الضوء على أنواع الاستبدال الثلاثة: الاسمي، والفعلي، والجملي؛ مع ما بينها من تقارب في سياقات النصوص القرآنية أدت إلى ترابط أجزاء النص بعضه ببعض في مختلف السياقات التي وردت فيها ضمن بنية النص الكبرى؛ كما أنه يؤدي دورًا مهمًا في إقناع المخاطب وبخاصة عندما يرتبط الخطاب بالعقل والعاطفة الانفعالية؛ فضلًا عن الوسائل والعوامل اللغوية التي عززت من حجته لدى جمهور المخاطبين؛ وبناء على هذا الإطار فقد أسلمني البحث إلى انتهاج المنهج الوصفي التحليلي تضافرًا مع المقاربات والنظريات اللسانية في تحليل النص/الخطاب قصد اكتشاف دور الاستبدال في تحقيق الترابط النصي ونصية النص.

الكلمات المفتاحية: النص، الاتساق، الانسجام، الاستبدال، القرآن.

Abstract:

This research seeks to clarify the role of substitution in the consistency and consistency of the text, by analyzing models from the language of the Noble Qur'an and highlighting the three types of substitution: nominal, actual, and wholesale; With their closeness in the contexts of the Qur'anic texts, which led to the interconnection of the parts of the text to each other in the various contexts in which they were mentioned within the grand text structure; It also plays an

وعليه فلسانيات النص وتحليل الخطاب تُعنى كثيراً بجميع مستويات اللغة: فتصف علاقاتها الداخلية والخارجية في الأبنية اللغوية حتى يتمكن المخاطب من تأويلها وفهمها؛ ضمن بنية النص الكلية؛ ومن هذا المنطلق تتمثل إشكالية البحث في مدى توافر الوسائل والأدوات التي أدت إلى ترابط أجزاء النص بعضه ببعض في مختلف سياقات الاستبدال التي ورد فيها ضمن بنية النص الكبرى وأكسبته سمة النصية، وسبب اختياري لهذا الموضوع يعود إلى أهميته وارتباطه بمسألة النظم القرآني وإعجازه التي تتجلى في ضوء نماذج من لغة النص القرآني لبيان مدى قدرته في تحقيق الاتساق التركيبي والانسجام الدلالي، وتحقيق سمة نصية النص، وفي هذا الصدد يمكننا تقسيم البحث إلى قسمين: الأول يعنى بتعريف الاستبدال لغة واصطلاحاً؛ وعلاقته بالإحالة والحذف؛ والقسم الثاني يختص بأنواع الاستبدال الثلاثة؛ ويقع ذلك في ثلاثة مباحث؛ وسنبداً بتعريف الاستبدال لغةً واصطلاحاً حسب ما يلي:

أولاً:

الاستبدال لغةً

ورد عند الفارابي في ديوان الأدب: "وتبدل الشيء بالشيء؛ إذا أخذ مكانه"^(٣)؛ فقد جعل التبديل أخذ المكان، أي إحلال شيء مكان شيء آخر؛ وأكد ابن سيده بقوله: "وتبدل

important role in persuading the addressee, especially when the speech is related to reason and emotional emotion; As well as the linguistic means and factors that reinforced his argument with the audience; Based on this framework, the research gave me a descriptive analytical approach in combination with linguistic approaches and theories in text/discourse analysis in order to discover the role of substitution in achieving textual coherence and textuality.

Keywords: text, consistency, harmony, substitution, Qur'an.

مدخل:

يعد الاستبدال أداة من أدوات التحليل النصي التي تنطوي اليوم تحت لسانيات النص وتحليل الخطاب، التي غدت رافداً من روافد اللسانيات المعاصرة؛ إذ أحدثت نقلة نوعية من نحو الجملة إلى نحو النص؛ فجعلت من النص وحدة لغوية كبرى مستقلة دلاليًا؛ وقد عبر عن ذلك سعيد بحيري بقوله: "نحو النص يراعي في وصفه وتحليلاته عناصر أخرى لم توضع في الاعتبار من قبل، ويلجأ في تفسيراته إلى قواعد دلالية ومنطقية إلى جوار النصية وقواعد ترابطها، بمعنى آخر للنص مهام معينة لا يمكن أن ينجزها بدقة إذا التزم حد الجملة"^(٤).

(٣) الفارابي، إبراهيم بن الحسين، معجم ديوان الأدب، تج: احمد مختار عمر، دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، ج: ٢، ٤٥٨.

(٤) سعيد بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص: ١٣٤.

ثانياً:

الاستبدال اصطلاحاً:

يعد الاستبدال عملية تتم داخل النص، إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر^(٧)، والاستبدال في ذلك شأنه شأن الإحالة، علاقة اتساق إلا أنه يختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي والمستوى المعجمي بين التراكيب والجمل، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي، ومن جهة أخرى فالاستبدال وسيلة أساسية في اتساق النص، يستخلص من كونه «عملية داخل النص»، أي أنه نصي، ومعظم حالات الاستبدال النصي قبلية بين عنصر متأخر وعنصر متقدم، وبناء على ذلك يعد الاستبدال أحد أدوات الاتساق النصي^(٨)، حد تعبير صبحي إبراهيم الفقي بقوله: "يعد الاستبدال من أهم عناصر التماسك والسبك النصي"^(٩).

ويعرفه هاليداي Halliday بقوله: "هو إحلال عنصر لغوي مكان عنصر آخر داخل النص"^(١٠)، ويسمى العنصر الأول عند هارفيج: المستبدل منه، والعنصر الثاني الذي حل محله: المستبدل به، وإذا وقع المستبدل منه والمستبدل به في مواقع نصية متتالية

الشيء، وتبدل به، واستبدله، واستبدل به، كله: اتخذ منه بدلا. وأبدل الشيء من الشيء، وبدله: تخذه منه بدلا^(٤). ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]: وقد يأتي الاستبدال بمعنى التغيير، وهو أيضاً لا يكاد يخرج عن الدلالة الأولى في وضع شيء مكان آخر ومنه: "وتبدل الشيء: تغير؛ وأما قول الراجز"^(٥):

فَبَدَّلْتُ وَالذَّهْرُ ذُو تَبَدُّلٍ هَيْفَا ذُبُورًا بِالضُّبَا وَالسَّمَا

أي: ذو تبديل، وأبدلت الشيء بغيره؛ وبدله الله من الخوف أمناً، وتبديل الشيء: تغييره وإن لم تأت ببدل، واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه. والمبادلة: التبادل، والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر كإبدالك من الواو تاء في تالله^(٦).

نجد مما سبق أن الاستبدال له دلالتان: أحدهما الإبدال بوضع شيء مكان آخر في موضعه، والثانية تغيير الشيء عن حاله، وإن لم يكن له بدل منه، فالتغيير في أية صورة ظاهرة تعد إبدالاً عن حالتها الأصلية.

(٧) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي-بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص: ١٩.

(٨) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: ١٩.

(٩) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق الخطابة النبوية نموذجاً، مجلة علوم اللغة، ج: ٩، العدد: ٢، ٢٠٠٦، ص: ١٩.

(10) Halliday & Ruqaiya Hasan (1976), Cohesion in English. London Longman Group, p: 88.

(٤) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ج: ٩، ص: ٣٣٨.

(٥) المرجع نفسه، ج: ٩، ص: ٣٣٩.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج: ١١، ص: ٤٨.

بين العنصرين المستبدل به والمستبدل منه، فهي علاقة قبلية بين عنصر سابق في النص وعنصر لاحق فيه. ومن ثم يكمن الحديث عن الاستمرارية «أي وجود العنصر المستبدل بشكل ما، في الجملة اللاحقة»، فإذا أخذنا مثلاً القول: "فأسي جد مثلومة؛ يجب أن أقتني [فأساً] أخرى حادة"، فإذا كان العنصر [فأساً] بوصفه مستبدلاً للعنصر «فأس»، فسوف نجد أن الفأس الأولى مستمرة في الفأس الثانية؛ وإن كانت الثانية مختلفة عن الأولى، إذ إن الأولى جد مثلومة، بينما الثانية حادة، «وهذا ما يدعو إليه الباحثان هاليداي ورقية حسن بالاستمرار في محيط التقابل»، بالإضافة إلى ما سبق هناك حقيقة أخرى تؤكد مسلمة الاستبدال في اتساق النص؛ وهي استحالة فهم ما تعنيه العناصر المستبدلة إلا بالعودة إلى ما هي متعلقة به قبلياً، وفي هذا العود يكمن ما يسمى لدى «هاليداي ورقية حسن» معنى الاستبدال: "إذ ينبغي البحث عن الاسم، أو الفعل، أو القول الذي يملأ هذه الثغرة في النص السابق، أي أن المعلومات التي تمكن القارئ من تأويل العنصر الاستبدالي توجد في مكان آخر في النص؛ لأن العلاقة بين عنصري الإحالة «المحيل، والمحال إليه»، علاقة تطابق، أما العلاقة بين عنصري الاستبدال «المُسْتَبَدَلُ، والمُسْتَبَدَلُ به» علاقة تقابل تقتضي إعادة التحديد والاستبعاد Repudiation، وعن هذا الاختلاف نتج التقابل في النص مما أدى

فإنهما يقعان في علاقة استبدال نحوية بعضهما ببعض، ويوجد في حالة الاستبدال النحوي بين المستبدل به والمستبدل منه مطابقة إحالية، ويُفهم تحت الإحالة في هذا الصدد العلاقة بما هو غير لغوي^(١١).

وبناءً على ذلك يعد الاستبدال وسيلة مهمة في اتساق النص وانسجامه، بحيث يكون هذا العنصر المتقدم بديلاً للعنصر المتأخر، ويصعب فهمها إلا بالعودة إلى ما هو متعلق به من وشائج سياقية ونصية داخلية أو خارجية، وهذا ما يجعله قادرًا على تحقيق الترابط والاتساق بين التراكيب داخل بنية النص الكبرى.

لذلك فهو وسيلة مهمة في تحقيق الاتساق والانسجام النصي لما له من قدرة على ربط العناصر النصية؛ إذ يؤدي السابق منها إلى اللاحق مما يحقق الترابط النصي بين التراكيب والجمال في النصوص؛ لذا يعد الاستبدال خطوة جلية ينبغي البحث عن أنواعه المتمثلة في الاستبدال الاسمي، والفعلية، والقولي أو الجملي، الذي يضيف على النص تلاحماً واستمرارية تجعله يتماسك وينسجم فيما بين أجزائه.

وفي هذا المقام يمكننا أن نعرف كيف يسهم الاستبدال في اتساق النص؟ فيمكن الجواب عن ذلك في علاقة الترابط

(١١) ينظر زتسيسلاف وأورزيناك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص: ٦١.

عنصرين سابق ولاحق، لكن المظهر البارز الذي يميزه عنه هو أن عنصر الاستبدال يتشكل بوجود عنصرَيه بعلاقة حضور، بينما يتشكل الحذف بإلغاء أحد عنصرَيه، بعلاقة حضور وغياب في آن واحد، حضور المبدل منه وغياب المبدل، ولذلك يميل بعض الباحثين كما سبق إلى تسميته «استبدالاً صفرياً» أو الاكتفاء بالمبنى العدمي^(١٥)، وهذا ما ذهب إليه "هاليداي ورقية حسن، أي أن علاقة الاستبدال تترك أثراً، وأثرها وجود أحد عناصر الاستبدال، بينما علاقة الحذف لا تخلّف أثراً، ولهذا فإن المستبدل يبقى مؤشراً يسترشد به القارئ للبحث عن العنصر المفترض مما يُمكنه من ملء الفراغ الذي يخلقه الاستبدال، بينما الأمر على خلاف هذا في الحذف: إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء، ومن ثم نجد في الجملة الثانية فراغاً بنويّاً يهتدي القارئ إلى ملئه اعتماداً على ما ورد في الجملة الأولى أو النص السابق بتعبير الباحثين هاليداي ورقية حسن"^(١٦).

علاقة الاستبدال بالإحالة:

يختلف الاستبدال عن الإحالة "في كونه يتم على المستوى النحوي والمعجمي داخل النص، بينما الإحالة تقع في المستوى الدلالي؛ فهي -إذن- تأخذ بعين الاعتبار العلاقات بين أجزاء النص وتجسيدها وخلق علاقات معنوية

إلى إعادة التحديد باستبعاد وصف وإحلال وصف آخر محله^(١٧).

وبناءً عليه فإن المستبدل به يحتفظ بجزء من المعلومة السالفة، فيتضح أن العلاقة الاستبدالية لا تقوم على التطابق وإنما على التقابل والاختلاف الذي ينتج عنه الاستبعاد لبعض المعلومات دون أن يلغي ذلك وظيفة الاتساق والترابط التي تقوم بها العناصر داخل النص، بل إن تلك العلاقة يُستمد منها القيمة الاتساقية.

علاقة الاستبدال بالحذف:

لا يختلف الاستبدال عن الحذف، إذ الحذف ظاهرة نصية لها دورها في انسجام النص والتحام عناصره، وشرطه في اللغة أن "لا يتم إلا إذا كان بناء الجملة بعد الحذف مُعيّناً في الدلالة على معرفته، كافيّاً في أداء المعنى، وقد يحذف أحد العناصر: لأن هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره"^(١٨)، وما يؤكد ذلك قول ابن جني: "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلّا عن دليل عليه"^(١٩)، وكذلك الاستبدال لا يختلف عن الحذف "باعتباره علاقة اتساق من جهة، ومن جهة أخرى كونه يتحقق بوجود

(١٢) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: ٢٠-٢١.

(١٣) محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار الشروق- القاهرة، ط/ ١٩٩٦م، ص: ٢٠٨.

(١٤) ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، دت، ج٢، ص: ٣٦٢.

(١٥) ينظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: ٣٤٠.

(١٦) محمد خطابي، لسانيات النص، ص: ٢١.

رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَيَّ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: ٩٣]. نجد أن الاستبدال في هذين السياقين وقع بين الاسم المفرد «رسالة» وجمعه «رسالات». فورد المفرد في قصة صالح ﷺ في بعثته إلى مدين، وورد الاسم الجمع في قصة شعيب في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾، وكأن شعيباً قد بلغ كلاً من الأمتين المضمون الإجمالي لكل رسالة، وإن كانتا في حقيقة أمرهما حذواً واحداً من النفخ الإلهي في خطاب الأمم، وعند النظر في كل ما ذكره صالح وشعيب -ﷺ- نجد أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح؛ وهذا يتناسب مع لفظ الجمع "رسالات" في سياق قول شعيب الدال على اشتماله لكل رسالة قبله.

نلاحظ من ذلك أن الاستبدال حقق قدرًا من الترابط والتماسك بين السياقين نظرًا لترابط السياقين بلفظة «الرسالة» واستبدال الأولى بالثانية في السياق بلفظ الجمع، وقد أفادت زيادة على ربط السياقين اشتمال الرسالة الثانية على ما جاء في الأولى.

ومن الاستبدال الاسمي استبدال المصدر بالمصدر في قوله تعالى: ﴿فَأَنْظَلْنَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ [الكهف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْظَلْنَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَاقْتَلَهُ قَالَ فَقَوْلَتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٥﴾ [الكهف: ٧٤]، فقال: «إمراً،

من خلال تلك العناصر الإحالية»^(١٧)، ومما يميز الاستبدال عن الإحالة -أيضاً- أن معظم حالاته قبلية، وذلك أن العلاقة فيه بين الكلمات تكون بين عنصر متأخر وعنصر متقدم، يقول إبراهيم خليل في ذلك: "والفرق بين الاستبدال والإحالة، أن الثاني يحيل على شيء غير لغوي في أوقات معينة، في حين أن الاستبدال يكون بوضع لفظ مكان لفظ آخر لزيادة الصلة بين هذا اللفظ، وذلك اللفظ الذي يجاوره، وذلك اللفظ الذي يدل على الشيء الذي تقدم ذكره"^(١٨)، وسنبين في الثلاثة المباحث الآتية أنواع الاستبدال في ضوء نماذج من القرآن الكريم ومدى تحقيق السمة النصية والترابط النصي بواسطة أداة الاستبدال؛ ونبدأ بما يلي:

المبحث الأول

الاستبدال الاسمي:

يتمثل الاستبدال الاسمي في استبدال أسماء بأسماء أخرى متقدمة عليها في النص^(١٩)، نحو الاسم المفرد بالجمع، أو مصدر بمصدر، أو نعت بنعت، وسنبين ذلك في الآتي:

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧١﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي

(١٧) أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، كلية العلوم- جامعة القاهرة، د.ت، ص: ١٤.

(١٨) إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص: ١٣٨.

(١٩) محمد خطابي، لسانيات النص، ص: ٢٠.

التحويل والتبديل مما يبدو في ظاهره مترادفاً، وهو في حقيقته متفارق في الدلالة القرآنية، على المقصود به كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. فالنفي هنا بمعنى أنّ فروع الشرائع- وإن اختلفت صورها- فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس: لأن الله أراد لها البقاء الدائم على وضعها، والتحويل يكون في الصورة مع نقاء الجوهر على حقيقته^(٢٣)، والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، وهو تغير في الجوهر كله أصلاً وصورة، وكلتا الصفتين ممتنعة على سنة الله تعالى، فهي لا تتغير كما قضى لها أبداً، وربما حُصت السنة بنفي التبديل والتحويل عنها في سياق واحد لمقابلة ما وصف الكفار قبل ذلك بوصفين اثنين.

نجد أن السياقين قد ترابطا واتسقا بفعل المناسبة واستبدال المصدر الأول بالثاني حسب الحدث المناسب له؛ فالتقارب بين المصدرين "إمراً، وتُكرراً" مع تقارب الحدين في زمن تقارب حد الاتصال، ولكنه استبدل الأول "إمراً" بالثاني "تُكرراً": نظراً لتغير فعل الحدث مع شدته في نظر موسى عليه السلام، ولكن الثاني أهون من الأول عند العبد الصالح، جعل النص بذلك متسقاً ومنسجماً.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٤﴾ وَتَمُودُ وَقَوْمٌ لُوطٍ

(٢٣) الحسين بن محمد الأنصهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم-بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٤٢٩.

ونكراً» في قصة موسى ﷺ مع العبد الصالح، والإمْرُ: الداهية، يقال أصله: كل شيء شديد كثير، وأمْرُ القوم: إذا كثروا واشتد أمرهم، وأمْرُ الأمر: إذا عظُم، وقيل: إنه العجب^(٢٤)، والنكر: الأمر الصعب، الذي تُنكرُهُ العقولُ وتنفر عنه النفوس، وهو فيما لا يخفى أعظم وأشد من الإمْر: لأن الإمر قد يستعمل في المذموم وفي غير المذموم، بيد أن النُّكر لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف، وينكره العقل كالقتل بدون سبب ظاهر، أما خرق السفينة وهي تمخر عباب البحر حسب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، فقد كانت في نظر موسى أمراً مذموماً، ولكنه في نظر العبد الصالح لم يكن كذلك؛ لأن العيب فيها لا يتلفها، بل يزهدها من يريد غصبتها، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان عيباً يمكن تداركه بالسدِّ؛ لأنه لم يؤد في ساعته إلى إغراق أحد من الركاب، وهو أهون لا محالة من قتل الغلام بغير سبب ظاهر، مما لا سبيل إلى تداركه^(٢٥)، ولمثل هذا قال قتادة: "النكر أشد من الإمر"^(٢٦)، وهذا ما لا يدخل في باب الترادف عند اللغويين، في أصله كدخول

(٢٤) ينظر محمد بن عبد الله الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص: ٨٧٨.

(٢٥) ينظر الأنصهاني، درة التنزيل، ج١، ص: ٨٧٩.

(٢٦) أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج١، ص: ١٨٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُخِيهِ ٣٥ وَأَصْحَابِيهِ ٣٦ وَيَنْبِيئِهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ٣٨ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٣٩﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥]. فقد وقع الاستبدال بين اثنين من أسماء القيامة «الصاخة، والطامة»: إذ أخذ اللفظان في السياق موقع الفاعلية، وجاء الأول فيهما مجرداً، والآخر موصوفاً، والصاخة كما قال ابن سيده: "صيحة تصخ الأذن، أي تصمها"^(٢٥)، وفي التنزيل: "فإذا جاءت الصاخة"، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً؛ لأنَّ الناس يصخون لها^(٢٦)، وقد تقدم الآية في سورة عبس ذكر الحالات التي تحدث للإنسان من موت أو قبر ونشر، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ٥١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ٥٢﴾ [عبس: ٢١-٢٢]، بالصوت الرهيب الذي تحدث النفخة التي تصم الآذان فيقضي الله -تعالى- عندها بإحياء الموتى. والطامة الداهية التي تطم على الدواهي، أي: تعلقو وتغلب. وفي أمثال العرب: "جرى الوادي فطم على القرى"^(٢٧)، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة، ومنه سميت القيامة طامة^(٢٨)؛ لأنها حد تعبير الفراء: "تطم على كل

وَأَصْحَابُ لَأِيكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ١٤﴾ [ص: ١٢-١٤]. وقال في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ١٤﴾ [ق: ١٢-١٤]. في هذا السياق نجد أن اختلاف الترتيب وخاصة في خاتمة الآيتين: «فَحَقَّ عِقَابُ» في سورة "ص"، وقوله: «فَحَقَّ وَعِيدُ» في سورة "ق"، يعود إلى اختلاف فواصل السياقين، ففي سورة "ص" فواصلها مبنية على أن تُرَدَّفَ أو أواخرها بالألف، إلا أن الآية في هذا السياق مختومة فاصلتها بالباء لشد انتباه المتلقي لوصف فرعون بذي الأوتاد وانتهى الوصف بـ: «فَحَقَّ عِقَابُ» وجاء مقابل له في سورة "ق": «وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ»، فاستبدل: «فَحَقَّ عِقَابُ» بقوله: «فَحَقَّ وَعِيدُ»، ليناسب خاتمة الآيات في سورة "ق" المنتهية بالدال؛ مما جعل النص مترابطاً في جميع أجزائه؛ وكذلك في سياق آخر مشابه له في قوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الظَّرْفِ عَيْنٌ ٥٨﴾ [الصافات: ٤٨]، مقابل سياق ص في قوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الظَّرْفِ أَتْرَابٌ ٥٩﴾ [ص: ٥٩]؛ فجاءت فاصلة الصافات بالياء والنون؛ لأن فواصل الآيات في سورة الصافات مردفة أواخرها بالياء أو بالواو^(٢٩)، وفي سورة ص ناسبت السياق المنتهي فواصله بالياء؛ وفي هذا ما يؤكد التماسك النصي بين أجزاء النص ضمن بنيتها الكبرى، ومناسبة كل سياق لفواصل الآيات التي وردت فيها.

(٢٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المخصص، تح: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط، ١٩٩٦م، ج: ٣، ص: ٣٦٧.

(٢٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط، ١٤٠٧هـ، ج: ٤، ص: ٧٠٥.

(٢٧) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، دار الفكر-بيروت، دت، ج: ١، ص: ٣٢٢.

(٢٨) الزمخشري، الكشاف، ج: ٤، ص: ٦٩٧.

(٢٩) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ١، ص: ١١٠-١١٣.

بها؛ أي المزمّل جسمه أو نفسه^(٣١)، ونحوه: المدثر، وقرئ: المنزمل على الأصل والمزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرها، على أنه اسم فاعل أو مفعول، من زمّله، وهو الذي زمّله غيره أو زمّل نفسه، وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزماً في قطيفة، فنّبه ونودي بما هو عليه، أي الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفته واستعداده للاستئصال في النوم، كما يفعل من لا يهمله أمر ولا يعنيه شأن^(٣٢)، نجد أن الوصفين قد حددت حالة الرسول صل الله عليه وسلم بدقة متناهية، فناداه أولاً بالمدثر أي الملتف بثياب، سواء كان نائماً أو غير ذلك، والمدثر هنا خالٍ من الأعباء والهموم، وهذا النداء كان في بداية البعثة قبل أن يتوالى الوحي وينوء بحمل الرسالة، ولكن عندما ناداه ربنا تعالى ووصفه بالمزمل فخص بهذه الصفة حالة الرسول بعد تحمّله للرسالة وأعبائها وجميع همومها؛ لأن أصل المزمل الحامل للعبء أو الثقل... كما ورد عند ابن فارس في مقاييس اللغة: "زمل" الزاء والميم والثام أصلان: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى حَمَلِ ثِقَلٍ مِنْ الْأَثْقَالِ، وَالْآخَرُ صَوْتُ، فَالْأَوَّلُ الرَّامِلَةُ، وَهُوَ بَعِيرٌ يَسْتَنْظِرُ بِهِ الرَّجُلُ، يَحْمِلُ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ، يُقَالُ ارْزَمَلْتُ الشَّيْءَ، إِذَا حَمَلْتُهُ^(٣٣)، وما يؤكد ذلك قرينة قيام الليل الموالية له في هذا السياق، ولم يقل له مع المدثر "قم الليل"، فكان ربنا

شيء^(٣٤)، وإنما استعملت الطامة الكبرى في هذه السورة؛ لأن فيها ذكر ما أوتي به فرعون من الطامة الكبرى في الكفر حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٣٥)، فهذه في الكبائر كشديدة الآخرة في الشدائد فكانه قرن إلى ذكر الكبيرة الموفية على أمثالها ذكر الطامة الكبرى وأهوالها^(٣٦)، ومما يذكر هنا أن فاصلة الصاخة لا تتفق مع ما سبقها وما لحقها، وفاصلة الطامة الكبرى، لا تتفق مع ما سبقها، وهذا مما يسترعي النظر ويستدعي قدر أكبر من العناية، وهذا الخروج على نسق الآية مع وجود صوتي الصاد والطاء الشديدين مما يشخص هول الحدث بالجرس الصوتي فضلاً عن النبر، الذي يقع على موقع الإدغام في الصيغتين، فضلاً عن فاعلية الوصف في الآية الثانية، وبذلك جاء الاستبدال في الموضوع الثاني عن اللفظة في السياق الأول مناسباً لهول الحديث عن يوم البعث فاختر له لفظة الطامة التي حقق بها قدرًا من التجانس والتماسك في سياق النص.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمل: ١]، مقابل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُذْتَرُّ﴾ [المدثر: ١]؛ إذ استبدل في السياق الثاني المدثر بالمزمل، وهو استبدال نعت بنعت، والمزمل: "من تزمل بثيابه إذا تلف

(٣١) ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ص: ١٠.

(٣٢) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج: ٤، ص: ٦٣٤.

(٣٣) ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج: ١، ص: ٢٥٠. السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج: ٣، ص: ٢٥٠.

(٣٤) الفراء، معاني القرآن، ج: ١، ص: ١٠٠. أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، ط: ١، ج: ٣، ص: ٢٣٤.

(٣٥) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ١، ص: ١٣٣٢.

الرئيسة في التحليل اللغوي"^(٣٦)، وهي الوحدة اللغوية الأكبر في التحليل اللغوي؛ ذلك أن المكونات اللغوية تتضافر فيما بينها على وفق أصول مرعية تبلغ غايتها عند الجملة، وتعمل هذه الأصول متضامّة بنظام من العلاقات؛ لأن "أجزاء الجملة مترابطة، فالجزء الواحد يقتضي الآخر في تنظيم علاقتي Linguistics، وتتجلى هذه العلاقات بشكل واضح في القرآن الكريم الذي يستبدل التركيب فيه بالتركيب كما تستبدل الأداة بالأداة، والصيغة بالصيغة، لتتحقق بوساطة ذلك المقاصد الدلالية والاتساق النصي في بنية النص الكبرى التي تناسب الأحداث والمواقف والدعوات ومعاني الأحكام الشرعية بالدقة الإعجازية التي لا تحد، كما هو سمت القرآن الكريم في كل أسراره اللغوية.

ومما تجب الإشارة إليه في هذا الموضوع سعة وكثرة التعبير بالتركيب الفعلية في النص القرآني بحيث لا يتسع البحث لاستيعابها جميعًا في هذا المقام؛ لأن التعبير بهذه التراكيب أصل من أصول بناء الكلام العربي، وسنفرغ في هذا المبحث لدراسة أنماط استبدال التراكيب، لنأتي بذلك على النوع الثاني من أنواع الاستبدال حسب الآتي:

يقول: يا أيها المتحمل للأعباء والهموم "قم الليل"، فالحل لهذه الأعباء والهموم في قيامه لا في النوم.

وعليه نجد مدى قدرة هذين الوصفين في تحقيق ترابط النص بعضه ببعض وتحديد كل سياق بما هو عليه من صفات ودلالات ظاهرية وضمنية.

المبحث الثاني: الاستبدال الفعلي:

يتمثل الاستبدال الفعلي في حلول فعل مكان فعل/أفعال متقدم عليه؛ لأن العلاقة بين اللغة والفكر جلية من خلال التعبير عن مقاصده بالتركيب النحوية التي تضم في تكوينها الأدوات والصيغ بالتناسق الذي عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"^(٣٤)، لتؤلف الجمل التي تعرف بأنها "المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع"^(٣٥).

والجملة في علم النحو هي "الركيزة

(٣٤) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص: ٤٩-٥٠.

(٣٥) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي-بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص: ٣١.

(٣٦) سلمان عباس عيد، تقويم الفكر النحوي عند اللسانيين العرب، دار الكتب العالمية بيروت، د.ت، ص: ١٢٠.

الاستبدال في الفعل الماضي:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي السُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، استبدل «صعق، بفرزع»، وقد عبّر عن هذين الحدين بالمعنى الماضي مع أنهما من الأحداث المستقبلية للإشعار بتحقيق وقوعهما، وأنهما كائنتان لا محالة^(٣٧)، فكما أنه لا شك في حدوث الفعل الماضي الذي تم وحصل، كذلك لا شك في حدوث هذه الأفعال التي هي بمنزلة الفعل الماضي في تحقق الوقوع، وأن ما يعتري الكلَّ عند البعثِ والنَّشورِ بمشاهدة الأُمورِ الهائلةِ الخارقةِ للعادةِ في الأنفسِ والآفاقِ من الرُّعبِ والتَّهيبِ الضروريين وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوفِ عليه أعني ينفخُ مضارعاً للدلالة على تحقق وقوعه إثر النَّفخِ ولعلَّ تأخيرَ بيانِ الأحوالِ الواقعةِ عند ابتداء النَّفخِ عن بيانِ ما يقعُ بعدها من حشرِ المكذِبينَ من كلِّ أُمَّةٍ لثنيةِ التَّهويلِ بتكريرِ التَّذكيرِ إيذاناً بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما بالنسبةِ لله حدث في علمه وانتهى^(٣٨)، وإنما جاء الفرع في النحل، والصعق في الزمر لمناسبة ما بعدهما

في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [٦٨] فإن هذا مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِرِينَ﴾ [٨٧] وهو المناسب للفرع؛ إذ معنى داخرين صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه، وأن سورة النمل خصت بقوله: «ففرزع» موافقة لقوله: ﴿وَهُمْ مِّن فَرَعٍ يَوْمِيذٍ ءَامِنُونَ﴾ [٨٨]، وخصت الزمر «بالصعق»، موافقة لقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ مَّتَّيْتُونَ﴾ [٣٠]؛ لأن معناه مات^(٣٩).

والفرق بين الفرع والصعق في المعنى، أن الفرع هو الخوف والانزعاج الذي يعتري الإنسان من الشيء المخيف، والصعق: الموت عند الجمهور، قال الراغب: "إن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها"^(٤٠)، ويبدو أن الموت سيكون من أثر الصعقة كما قال، فإذا سمع الناس النفخ في الصور وهو من الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفرعون عنده، ويصعقون ويموتون، وإنما قيل: في النمل: «ففرزع» لمناسبة ما بعده، وقوله في آية أخرى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّن فَرَعٍ يَوْمِيذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقد ناسب بين ختام السورة وفاتحتها، وكذلك ناسب بين ذكر الفرع والأمن في الآية نفسها، علاوة على ما حققه من اتساق وانسجام في السياقين بفعل اختيار اللفظين في موضعيهما.

(٣٩) ينظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار-عقّان، ط٤، ٢٠٠٦، ص: ١٧٩.

(٤٠) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: ٤٨٥.

(٣٧) الأندلسي، عبدالحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج: ٤، ص: ٢٧٢.

(٣٨) ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، دت، ج: ٦، ص: ٣٠٣.

دلالية ظاهرة أو خفية، مما يلمسه الإنسان بالتأمل والتذوق والبصيرة اللغوية النافذة، ومن هنا كان الإرسال متسقاً مع الظالمين من بني إسرائيل ليعلم أن الرجز قد سلط عليهم تسليطاً خاصاً بهم لتفاهم جرمهم بخلاف الإنزال وأخذ القوم وكأنه في اتساع الدائرة مما يخفف نوع العذاب الذي لحق بكل فرد منهم بوصفهم فسقة ليس إلا، ويرصد ما جرى من تحويل في مكونات التركيب الكبير في الآيتين، وفي البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم والإرسال أشد وقعا من الإنزال فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة لذلك؛ وختم آية البقرة بـ «يَفْسُقُونَ» ولا يلزم منه الظلم؛ والظلم يلزم منه الفسق فناسب كل لفظة منها سياقه^(٤٣)؛ لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، ولا الظلم يلزم منه الفسق، لذلك ناسب «أرسلنا، ويظلمون»، مقام سورة الأعراف، و«أنزلنا، ويفسقون»، ناسب سورة البقرة، فضلاً عن كثرة استعمال كلمتي «رسول، ورسالة» في الأعراف دون البقرة، وما يمكن أن يتصور من اقتضائه لفعل الإرسال بوصفه نسقاً لغوياً ملحوظاً ومقصوداً في بناء السورة كلها.

ومن استبدال التركيب الفعلي الماضي بنظيره أيضاً قوله تعالى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ»^(٤٤) [الأعراف: ٨٣]، وقوله تعالى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْتَهَا

ومنه قوله تعالى: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ»^(٤٥) [الأعراف: ١٦٢]. وفي السياق الثاني قال تعالى: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»^(٤٦) [البقرة: ٥٩]. فذكر الإرسال والإنزال بفعليهما الماضيين، والفعل في البقرة وارد في سياق تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، أما في الأعراف ففي مقام تقيدهم وتأنيبهم، والإرسال أشد في العقوبة من الإنزال: لأن الإرسال مقترن بالعذاب غالباً، ومعناه هنا: التسليط^(٤٦)، قال تعالى: «وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ»^(٤٧) [الفيل: ٣]، وقال تعالى: «وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ»^(٤٨) [الذاريات: ٤١]، وقد وقف الفخر الرازي عند الفرق بين الإرسال والإنزال، قائلاً: "لِمَ قال في البقرة: «فأنزلنا»، وفي الأعراف فأرسلنا؟ ثم أجاب بقوله: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث في الآخرة"^(٤٧)، ولا يخفى أن التعبيرين: «أرسلنا، وأنزلنا» يتقاسمان معنى مشتركاً، غير أنهما يختلفان في المعنى التنظيمي المعتمد على الرابطة التي تشد الكلمة على وقف دواع صريحة وإيحائية تبدأ من المعنى المعجمي وتنتهي بالمعنى السياقي الذي يواشج بين المقامات والحالة مواشجة

(٤١) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ، ج: ١١، ص: ٢٨٥.

(٤٢) محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج: ٣، ص: ٥٧.

(٤٣) عبدالرحمن السيوطي، الإتيان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م، ج: ٣، ص: ٣٩٣، والسيوطي، معترك الأقران، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ج: ١، ص: ٦٨.

فائدة^(٤٤)، فذكر كينونة امرأة لوط في الغابرين، وما قدر لها أن تكون فيهم، والفرق كبير بين العبارتين «كانت» و«قدرناها»: لأن فعل الكون ماض ناقص محتاج إلى اسم وخبر، وهو دال على أن بقاء المرأة مع المهلكين من قوم لوط لتهلك معهم كان بمحض إرادتها، بيد أن الجملة الأخرى بفعلها الماضي وفاعله ومفعوله دالة على أن هلاكها كان بتقدير من الله -تعالى- وعدله.

ومما يلحظ من أسرار العبارتين أن العلاقة القائمة بين كان وامرأة لوط في الأعراف علاقة خبرية «كان ← ت ← امرأته»، ويفهم من هذا أن الفعل المباشر هو من عند الله في القضية كلها، بدليل إسناد التقدير إلى نفسه تعالى بضمير الجمع «نا» هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن تقدير الله -تعالى- بإهلاك امرأة لوط مع من هلك قد جاء في سورة النمل بعد قوله على لسان قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فقد خلع هؤلاء القوم رجاء الحياء، وجهروا بالفاحشة في الإنكار عليهم، وتقريعهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥]، فقابلوا لوطًا بالتصريح بإخراجه مع أهله، فكان تقدير الله -تعالى- بقاء امرأته معهم ليصيبها ما

مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ [النمل: ٥٧]، تقدم نظير هذه الآية في سورة الأعراف [٨٢]، وخالفها هذه بوقوع العطف بالفاء في قوله: {فما كان جواب قومه} دون الواو، وبقوله: {أخرجوا آل لوط} عوض {أخرجوهم} [الأعراف: ٨٢] وبقوله: ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ عوض ﴿كَانَتْ﴾ [الأعراف: ٨٣]، وبقوله: {فساء مطر المنذرين} عوض ﴿فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، فأما موقع الفاء هنا فهو لتعقيب الجملة المعطوفة بالفاء على التي قبلها تعقيب جزء القصة على أوله فلا تفيد إلا تعقيب الإخبار، وهي في ذلك مساوية للواو، ولكن أوتر حرف التعقيب في هذه الآية لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، فالاختلاف بين هذه الآية وآية الأعراف تفنن في الحكاية، ومراعاة للنظير في النسج، وهذا من أساليب قصص القرآن. وكذلك قوله: {أخرجوا آل لوط} دون أخرجوهم [الأعراف: ٨٢]؛ لأن المحكي من كلام القوم هو تأمرهم على إخراج آل لوط فما هنا حكاية بمرادف كلامهم وما في الأعراف حكاية بالمعنى والغرض هو التفنن أيضًا، وكذلك الاختلاف بين قدرناها هنا وبين كانت في الأعراف [٨٣]، وأما الاختلاف بين فساء مطر المنذرين، وبين فانظر كيف كان عاقبة المجرمين [الأعراف: ٨٤]؛ لأنهما عبرتا عن حالهم، وتفرع الوصف على ما حل بهم: فوزع التعبير على الآيتين لتلا يخلو تكرير القصة من

(٤٤) ابن عاشور التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م، ج: ٢، ص: ٦٥.

يُغْرُورٌ ﴿ [الأعراف: ٢٢]، أي: أوقعه فيما أراد من تغريبه، وهو من إدلاء الدلو^(٤٨)، فيكون المعنى: إن الشيطان أوقع آدم وزوجه في المعصية، أي دَلَّاهُما في المعصية بأن غَرَّهما بغروره وإفائهما فيها^(٤٩)، وفيه تبيين على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية؛ لأن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى السفلى ﴿يُغْرُورٌ﴾ بما غَرَّهما به من القسم فإنهما ظنا أن لا يُقيسم بالله أحد كاذبا^(٥٠)، ويؤكد ذلك السياق في الأعراف الذي تضمن استنفاهاً تقريرياً في قوله تعالى: ﴿وَدَانَهُمَا رُتُومًا آَلَمَ أَنَّهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢]، مشعراً بأن هذا الحدث وقع بعد النهي لهما، وفي ذلك خروج عن أمر الله بغرور من الشيطان الذي أوقعهما فيما هو أكبر من الزلة أو الخطأ والمعصية اليسيرة، فصوّر في هذا السياق حالتهما التي وقعا فيها لجسامة المعصية.

ومن ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ ﴿٥٠﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ [الكهف: ٣٦]، نجد في هذين السياقين أن فعليهما مبنيان للمجهول، والضمير فيهما نائب عن الفاعل، وقد سبق

(٤٨) أبو نصر إسماعيل الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، ج: ٦، ص: ٢٣٣٩.

(٤٩) إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب - بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ج: ٢، ص: ٣٢٧.

(٥٠) ينظر أبو السعود، ج: ٣، ص: ٢٢١.

سيصيبهم من الهلاك؛ لأنها منهم بالاعتقاد والمناصرة على الفعل الفاحش.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٣٦]، فقد استبدل الفعل الماضي «فأزلهما» بنظيره «فدلاهما»، والفرق بين الإزلال والتدلية، أن الزلة قد تكون في الموضوع نفسه، يقال زل الإنسان عن الصخرة، زلق^(٤٥)، قال الأزهري: "إذا زلت قدمه قيل: زل، وإذا زل في مقام أو نحوه، قيل: زل زلة، وفي الخطيئة ونحوها وأنشد^(٤٦):

هَلَّا عَلَىٰ غَيْرِي جَعَلْتَ الرَّزْلَةَ فَسَوْفَ أَغْلُوا بِالْحَسَامِ الْقُلَّةَ
فهو من الزلل، ومعناه: إن الشيطان حمل آدم وحواء على الزلة فنحاهما عن الجنة، وإزلاله لهما بقوله لآدم: ﴿قَالَ يَبَادِمُ هَلْ أَذُّكَ عَلَيَّ شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكِي لَأَبْيَأُ ﴿٣٠﴾ [طه: ١٢٠]،

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا تَهَنُّكُمَا رُبُّكُمَْا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٣٠﴾ [الأعراف: ٢٠]، أما التدلية: فلا تكون إلا إلى أسفل؛ لأنها من التدلية في البئر، فإذا دلّيت أحداً فقد أنزلته إلى أسفل، وأصلها عند الأزهري: "الرجل العطشان يُدَلِّي في البئر لِيَرَوِي من مائها فلا يجد فيها ماءً فيكون مدلّياً فيها بالغرور، فوضع التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعاً"^(٤٧)، وعند الجوهري: ﴿فَدَلَّاهُمَا

(٤٥) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٣٠٦.

(٤٦) محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج: ١١٤، ص: ١١٤.

(٤٧) الأزهري، تهذيب اللغة، ج: ١٤، ص: ١٢٢.

فضلها المردود على الجنة التي سيستقبلها كما زعم عند ربه لو رُدَّ إليه.

ومن ذلك -أيضاً- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ سُؤْلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ [فاطر: ٢٥]، وقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ آل عمران: ١٨٤، فقد وقع الاستبدال بين «كذبوك، ويكذبوك» وقد وردت آية فاطر في سياق الكلام على الهداية والاستجابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ [فاطر: ١٨]، ثم قال: فإن يكذبوك فالمقام مقام الهداية والاستجابة وتبليغ الرسالة والدعوة، وقد أتى الفعل المضارع للدلالة على ضرورة استمرار التبليغ والإنذار والدعوة إلى الهداية، والمقام في آل عمران استذكار تاريخي لحادثة معينة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴿١٨٣﴾ [آل عمران: ١٨٣]، مما لا يناسبه غير التعبير بالفعل الماضي^(٥٢)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤]، في سياق الهداية والاستجابة والتبليغ، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾ [فاطر: ٣]، وقد أتى بالفعل المضارع للسبب الذي ذكرناه آنفاً، فضلاً عن بناء الكلام في آية آل عمران على الاختصار والاكتفاء بالقليل عن الكثير على

التركيب في آية الكهف "ضرب الله مثلاً جنة في الدنيا جعلت لرجل ظلم نفسه، فلم يشكر الله على النعمة التي أنعمها عليه، وظن أنها لا تفتنى أبداً، وأنكر قيام الساعة قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ [الكهف: ٣٥]، فالجنة الموصوفة قد حوت مراده، واشتملت على كل ما أراده من النعيم الذي زعم لنفسه أنه دائم أبداً، ولما كان الرد عن الشيء لا يخلو من كراهية المردود لطبيعة هذا الفعل الذي يقع خلاف رغبته، كنقل الرجل المذكور عن جنته الزاهية إلى ما زعم لنفسه أنه سيكون أحسن منها حين يُرَدُّ إلى ربه فإن استعمال جذر الرد يلفتنا إلى أن الرجل كان يبطن سره تفضيلاً للأولى على الثانية مع أنه قال ما قال في مقام تسليته لنفسه، ولم يتقدم آية فصلت ما تقدم آية الكهف قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُّ آلِيَانَسُنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسُ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ [فصلت: ٤٩]، ثم قال: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيُفَوِّقَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْرَىٰ ﴿٥٠﴾ [فصلت: ٥٠]، وليس في «رجع» ما في «رُد» من كراهة وهوان يلحقان المردود ولا يلحقان المرجوع، فافترقا لذلك^(٥٥)، ما في «رد» من كراهية الرد: لأنه لم يتضمن أكثر من ذكر مجرد لحدث الإرجاع من غير أي ظل معنوي كالظل النفسي الذي لمحنه وينطوي في استعمال جذر الرد المقتضي كراهة الحدث بعد بوار الجنة الدنيوية التي

(٥٢) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٢٩٨.

(٥٥) ينظر الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ١، ص: ٨٧٥.

ما في هذه الآية من مقابلة بين صورتى إحياء البلد الميت بالماء، وإحياء البشر بعد موتهم، ومن المعلوم أن إخراج الموتى غير حاصل في الماضي، ولكنه سيحصل مستقبلاً، وقد عُبِّر في الفرقان بالماضي «أرسل» ليتشاكل مع السياق الذي تضمن سردًا للنعم التي كان الله -تعالى- قد أنعمها على عباده ومنها إرسال الرياح^(٥٣)، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، فكل ذلك قد تحقق في الماضي مع ديمومة وقوعه في الحاضر والمستقبل، على وفق ما جرى عليه التعبير في الأعراف.

الاستبدال في الفعل المضارع:

يأتي الاستبدال في الأفعال المضارعة كثيرًا في التراكيب الفعلية الحاضرة في سياق النص القرآني بما يناظرها في التشكيل النحوي وبطابقها أو يفارقها في الدلالة، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ نَفُصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: ٧٤]، في هذا السياق استبدال في نوع ضمنية المضارعة في «يطبع، ونطبع»، مع إظهار الفاعل في الأعراف، وإضماره في يونس،

خلاف ذلك في آية فاطر، ومما يدل على ذلك أمور منها:

- بناء الفعل الماضي للمجهول في آية آل عمران «كذب» وبنائه للمعلوم في فاطر «فقد كذب»، مما اقتضى التصريح بالفاعل وإطالة العبارة، وقد وقعت هذه المفارقة أيضًا في «جاءوا» في آل عمران و«جاءتهم» في فاطر.
- ذكر الباء مع كل معطوف في آية فاطر: «وبالزبر والكتاب المنير»، وحذفها في آل عمران: «والزبر والكتاب المنير»، وربما كان التحول من الماضي إلى الحضور بما اقتضاء من المجيء بحرف المضارعة في آية فاطر دليلًا آخر على الظاهرة التعبيرية المشار إليها أيضًا.

ومن استبدال الفعل الماضي بالمستقبل الذي هو نمط معروف من الحاضر في توجيهات النحاة، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾ [الفرقان: ٤٨]، فقد وقع الاستبدال بين «أرسل، ويرسل»، والمقام في الأعراف دعاء وتضرع، وخوف وطمع، وقد قال تعالى قبلها: «ادعوا ربكم تضرعا وخفية..»، فكان في هاتين الآيتين بعث على الدعاء والتضرع، وتعليق للخوف والطمع بالرحمة، والتعبير بالفعل المضارع كما أسلفنا دال على ضرورة استمرار ذلك وتجده في المستقبل دائمًا مع

(٥٣) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ٢، ص: ٥٩.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]، بلزوم الإضمار وحده لتوحيد صورة الفاعلية من حيث شكلها النحوي المشار إليه على خلاف ما جرى في السورة الأخرى، مما لا يستبعد أن يكون مقصدًا نحويًا في التعبير القرآني وملحظًا من ملاحظ إعجازه التي لا تكتشف بغير النظر والتأمل الدقيق، وهي كثيرة جدًا، منها في إطار ما نُغنى به من استبدال التركيب الفعلي الحاضر بنظيره.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]، وهذا الاستبدال بين الفعلين «يروا، ويعلموا» المنفيين، وقد جاءت آية الروم بعد قوله تعالى: (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها)، والمعنى إذا أنعمنا عليهم نعمة تُرى عليهم من مطر أو سعة أو عافية فرحوا بها، وإن أصابتهم عقوبة وبلاء من جذب أو ضيق أو مرض قنطوا من الرحمة، وفعلوا فعل البانس من أن يشمله الله بنعمة إن تاب من المعاصي، ورجع إلى الله، ثم إن ألفاظ الرؤية في الروم أكثر مما في الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر من الروم... لذا استنحت الروم لفظ الرؤية والزمير لفظ العلم^(٥٦)، وهاتان الحالتان مرئيتان عندهم، ومشاهدتان "فإن من بسط له الرزق رؤى ماله

والطبع هو الختم: "يقال طبع الله على قلوب الكافرين... أي ختم، فلا يعي، وغطى لا يوفق لخير"^(٥٥)، وقد بنيت آية الأعراف على ما تقدمها من الآيات التي انتقل فيها الإضمار إلى الإظهار ومن الإظهار إلى الإضمار في إخبار الله ﷻ عن نفسه، كالإضمار في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]، والإظهار في قوله: ﴿أَفَأَمِّنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، والإضمار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوَدَّشَاءَ أَصَابَتْهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، ثم العودة إلى ذكر الطبع والطابع مظهرًا في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، مراعاة لما بُنيت عليه الآيات المقدمة من نسق الانتقال الذي أشرنا إليه، في حين أن إضمار الفاعل في آية يونس مبني على ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهو إضمار لم يداخله أي إظهار للفاعل^(٥٥)، كما حصل في سياق آيات الأعراف، فقد قال تعالى قبل آية يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي السَّمَاءِ فَجَعَلْنَاهُمْ حَلْبَفًا﴾ [يونس: ٧٣]، وقال في مفتتحها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ سُلَيْمَانَ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، ثم قال بعدها:

(٥٤) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٨، ص: ٣٣٢.

(٥٥) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ٢، ص: ٦٤٥.

(٥٦) ينظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: ١٧٩.

يعارضه معارض، فناسب هذا قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وإصابته تعالى من يشاء من عباده بالخير هو المراد، وبقوله في الأنعام: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥٨)، فالمس في اللغة هو اللمس^(٥٩)، واستعمل هنا في الإصابة مجازاً، أي وإن يصيبك بخير، أو ينلك خيراً^(٦٠)، وبهذا يكون قد اجتمع الأمران في آية يونس، وكأنه قد قيل: "وإن يمسك بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به، وأراده لك"، وفي هذا من التأكيد ما ليس في آية الأنعام، وذلك ليطابق هذا التأكيد ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦١) [يونس: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، مما لم يتقدم مثله في الأنعام^(٦٢)، التي اكتفى فيها بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦٣)، ويفهم من هذا أنه تعالى قد أكد ذكر الخبر في آية يونس أكثر مما في الأنعام، فذكر لما يبدر منهم مقابل إشارته في الأنعام إلى أنه يمسهم بالخير من مصدر قدرته القادر على كل شيء، ومثل هذه الفروق الدلالية بين التراكيب ميدان كبير لعمل النحوي والمفسر من حيث يريان الوجوه التي تؤكد السمة الإعجازية في العبارة القرآنية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ لِأَخْرُنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ

ولم يخف على المشاهد حاله، ومن انقلب أمره، وانقطع خيره أدركت العين منه خلاف ما كان قبل"^(٥٧).

فلما جاءت هذه الآية بعد ذكر النعمة، وحال الإنسان إذا سلبت منه، والنعمة المرئية، ناسب هذا المكان المجيء بجذر الرؤية الذي جرى استعماله في سورة الروم سبع مرات، بما يشبه أن يكون مقصداً إعجازياً من مقاصد العبارة القرآنية، كما جرى استعمال جذر العلم في سورة الروم لإقرار النسق اللغوي الغالب في الاستعمال على نظيره في كل من السورتين، وبهذا فقد ربط باستبدال الفعل الأول بالثاني بين السياقين وناسب بينهما وجعلهما منسجمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٦٤) [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦٥) [الأنعام: ١٧]، فقد استبدل الفعل «يمسك»، ب«يردك»، في ذكر الخير وقد أتت آية يونس بعد قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦٦) [يونس: ٩٦]، وهذا إخبار منه تعالى بجري الخلاق على ما قدر لهم أولاً، وسبق حكمه تعالى ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وهذا تأكيد للأمر المذكور، وإن ذلك لا يرده ولا

(٥٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٦، ص: ٢١٧.

(٥٩) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ٢، ص: ٤٩٤.

(٦٠) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج: ٢، ص: ١٠.

(٥٧) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ١، ص: ١٠٥.

زاوية كثرتهم واختلاف أحوالهم وظروفهم وأزمنتهم، وفي حالتهم الثانية فئة واحدة من الناس كذبت رسولها كما كذب أولئك الرسل الكثر الذين أرسلوا إليهم، ولكنهم لم يعرفوا بغير الكفر الذي انسجمت معه وانطلقت منه كل ألوان المعصية التي ذكرت عنهم كإيذاء النبي ومحاولة قتله، والاعتداء على أصحابه، ومحاصرتهم وما شاكل ذلك مما سجلته التواريخ.

ونخلص من هذا إلى أن استبدال الفعل بالفعل آتٍ من زاوية ذات بُعد عميق، يضرِب في الاجتماع والتاريخ والاعتقاد وفي غير ذلك مما لا يلمح إلا بالتأمل وتدقيق النظر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٤٢] [يونس: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن مِّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٤٣] [يونس: ٤٣]، فقد وقع الاستبدال بين «ينظر» و«يستمعون»، على التقابل، "وإنما جمع الضمير الراجع إلى كلمة «مَن» رعايةً لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناءً على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب^(٦١)، بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة فجمع ليُطابق اللفظ المعنى ووحده «يَنْظُرُ» حملاً

فَدُوِّقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]، فاستبدل «تكفرون» بـ «تكسبون»، تأسيساً على وعيده تعالى بالعذاب، وقد سوَّغ هذا الاستبدال اختلاف المقام في آية الأعراف عنه في آية الأنفال، فسياق آية الأعراف في أمم متفرقة، وأصناف من تنوع كفرهم وتكذيبهم، وارتكبوا المعاصي، وافتروا على الله الكذب فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِطْنَاهُمْ لَأُوْلِيئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَءَاتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضَعِيفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٨] [الأعراف: ٣٨]، وقال: ﴿وَقَالَتْ أُولِيئِهِمْ لَأَخْرِطْنَاهُمْ لَأَكْفُرْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقد ذكر السبب إيماء إلى تنوع ما اجترحوا من المخالفات والذنوب والضلالات، بيد أن سياق آية الأنفال في كفار قريش، وهم عبدة أوثان لم تتكرر فيهم الرسل، ولم يكن منهم غير الكفر والتكذيب بالرسول ﷺ، في رسالته إليهم فأوعدهم بالعذاب على هذا النمط المعين الواحد من الفعل في طبيعة ما اقترفه المذكورون في الآيتين من الذنوب والمعاصي، وهم في حالتهم الأولى متعددون اتصف عصيانهم بالتنوع من

(٦١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج: ٤، ص: ٤٨.

ولا يمكنهم أن يريا ما أجرى الله على يدي رسوله من الخوارق ولهذا أبدت الآيتان اليأس من هدايتهما^(٦٦).

وقد ذكر ابن قتيبة أن في الآيتين دليلاً على فضل السمع على البصر؛ لأنه "حين جعل مع الصمم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر"^(٦٧)، وإنما وقع الاستبدال لمراعاة الظرف الذي لا يناسبه إلا تخصيص السمع أو البصر به، فالليل في الآية الأولى ظرف مظلم، لا ينفذ فيه البصر، فاقترضت بلاغة القرآن الكريم، أن يقال: "أفلا تسمعون"، للمناسبة الكاملة بين الحاسة والموقف المظلم الذي لا يقع فيه الإبصار، بخلاف النهار في الآية الثانية فينفذ فيه البصر يناسبه القول "أفلا تبصرون"، ومثل هذه المراعاة من الدقائق الإعجازية التي لا سبيل إلى الغفلة عنها لدى تمثل العبارة القرآنية، ومنها ذلك الفرق بين التعدي والتقرب في قوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّكْعَتِ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقد ذكر الحدود في الأولى وحظر التقرب منها، وذكرها في الثانية وحظر التعدي عليها، وإنما كان الحظر الأول؛ لأنه تعالى قد نهى عن مباشرة النساء في أثناء الاعتكاف في المساجد، والنهي عن قربان الشيء أبلغ من النهي عن فعله، ويظهر ذلك

على اللفظ إذ لم يكثر كثرتهم^(٦٨)، مع احتمال الجمع والإفراد بالضميمة السياقية «من» الموصولة واحتمال أن يكون الجمع والإفراد قد وقعا لسبب آخر غير ما ذكرنا؛ لأن التأثير بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع، لا بحسب الرؤية فأفرد النظر؛ لأن رؤية النبي ﷺ واحدة، لا تختلف عند الرائيين، وجمع الاستماع لاختلاف أثره من شخص لآخر^(٦٩)، وقد أفرد لفظ الاستماع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وفي قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]؛ لأن آية الأنعام نزلت في بضعة رجال من قريش^(٧٠)، فوحد الاستماع هنا لقلة المستمعين قياساً بجمع الكفار الذين عنتهم الآية الكريمة في يونس، والمنافقون الموماً إليهم في آية محمد قلة كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، في المدينة فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له إلا تهاونا منهم^(٧١)، وقلتهم هذه مغيبة بمجموع ما كان يحيط به الكفار يومئذ، والمقصود في آية يونس إعلام الرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار قد بلغوا في كفرهم وعنادهم وعداوتهم له حداً كبيراً؛ لأن الأصم الأحمق والأعمى الفاقد للبصيرة لا يستطيعان الوقوف على محاسن الكلام، واكتشاف ما ينطوي عليه من الإعجاز،

(٦٦) ينظر: الكرمانى، أسرار التكرار، ص: ١٤٠.

(٦٧) ينظر: فاضل السامرائى، التعبير القرآنى، ص: ٤٧-٤٨.

(٦٨) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج: ٢، ص: ١٣.

(٦٩) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٣٢٢.

(٦٦) ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحیط، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ، ج: ٤، ص: ٤٧٢.

(٦٧) ينظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص: ١٣.

هو ظاهر في سياق آياتها، قال ملاً فرعون: ﴿وَأَبَعَثَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٦٦)، وهو مقام يؤكد سياق الآيات في السورة الأخرى، بيد أن الملاً لم يكتفوا بطلب الإرسال بل طلبوا البعث فيما حكته عنهم آية الشعراء، فقد أرادوا أن ينهضوا في المجتمع حاشرين فضلاً عن الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإشارة، وتهييج الناس على موسى، وهذا معنى لا يؤديه فعل الإرسال^(٦٧)، ومن الطريف أن تلحظ تكرار استعمال فعل الإرسال ومشتقاته في سورة الأعراف أكثر مما في سورة الشعراء فقد ورد في الأعراف ثلاثين مرة، وفي الشعراء سبع مرات، ولا يخفى ما في هذا التباين من تأكيد طلب الإرسال في السياق الطويل في الأعراف، وكأن قوة دلالة البعث على الإرسال وما يصحبه من معاني الإثارة والإنهاض والتهييج هو الذي يرفع العدد القليل من تكراره في سورة الشعراء إلى قوة الإرسال المؤكد عليه في السورة الأخرى، مما يمكن أن نعهده ملحظاً إعجازياً لا يصل إليه المرء إلا بالنظر والتأمل الطويل.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٦٨) [الأنبياء: ٩٢]، وقال في المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٦٩) [المؤمنون: ٥٢]، فقد وقع الاستبدال بين «اتقون، واعبدون»، مما يبدو في ظاهره الدلالي تماثلاً في دواعيه السياقية، ولكننا نلاحظ أن

في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرَنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، بيد أن الحظر في الثانية ﴿تَلَّكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، قد جاء بيان عدد ألفاظ الطلاق فناسب ذلك النهي عن التعدي والتجاوز على الحد الذي وقع الإلزام به.

الاستبدال في فعل الأمر:

منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٧٠) [الأعراف: ١١١]، وقوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبَعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٧١) [الشعراء: ٣٦]، فقد وقع الاستبدال بين «ابعث، وأرسل»، الفعلين الطليبين اللذين يفيدان وقوع حدثهما قبل انتهاء الأمر أو بُعْثِهِ، وقد اقتضى سياق الآيات في الشعراء ذكر فعل البعث دون الإرسال؛ لأن البعث يتضمن معناه؛ ويرى عليه بمعنى الإثارة والإنهاض والتهييج^(٧٢)، قال الراغب: "أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث"^(٧٣)، والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر، بل يكون بإنهاض شخص في المجتمع نفسه، ومنه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ومعناه: "انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره"^(٧٤)، ولما كان المقام في السورة مقام زيادة تحدي وقوة، ومواجهة كما

(٦٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٢، ص: ١١٦.

(٦٩) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: ١٣٢.

(٧٠) الزمخشري، الكشاف، ج: ١، ص: ٢٩١.

(٧١) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: ٣٣٠.

والإرسال أنفا، لسياق السورة التي تضمنته
وعددناه ملخصًا إعجازيًا جديرًا بالتأمل #.

المبحث الثالث الاستبدال الجملي:

يتمثل الاستبدال الجملي في اختلاف التعبير في الجملة من سياق إلى آخر بينهما علاقة تشابه في النص القرآني؛ أو استبدال قول مكان آخر مع تأدية وظيفته في النص، وهو وسيلة مهمة للربط بين الجمل وشرطه أن تُستبدل وحدة لغوية تشترك معها في الدلالة، فيسهم في تحقيق الترابط النصي، حتى يتضح للقارئ ويفهم دلالاته النصية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ إذ وقع الاستبدال في آخر الفاصلتين بين قوله: "إن الله لغفور رحيم، وإن الإنسان لظلوم كفار"، وجاء في تعليق الفخر الرازي على اختلاف هاتين الفاصلتين قوله: "كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما: كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود بأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم، اعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي

سياق الآيات في سورة الأنبياء يتحدث عن الإحسان والتفضل، واللطف والرحمة، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، إلى نهاية السياق مما فيه من الإحسان بذكرها ومريم...، وختم ذلك كله بقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، فذكر العبادة المأمور بها كل من قص قصصهم، فناسب ورود أمر بالعبادة من رعاها بإحسانه ولطفه من المذكورين جميعًا، بيد أن آية المؤمنين جاءت عقب ذكر طوائف كثيرة من الأمم العاصية التي أهلكت بكفرها، فقد قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِتَاءً﴾ المؤمنين ٤١، واستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَذَرْنَاهُمْ فِي عَمْرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وغير ذلك فكان من المناسب أن يأتي الأمر بالتقوى في آية المؤمنين، لما فيها من التحذير والتخويف المتسق مع ذكر العقوبات والإهلاك^(٧٢)، وقد صاحب كل ما ذكرناه ورود لفظ التقوى، التي لم ترد البتة في سورة الأنبياء؛ لأن السياق لا يقتضي حاجاته إليها، بخلاف سورة المؤمنين، فقد ورد فيها ذلك أربع مرات باقتضاء أحوال الأمم الماضية المهلكة للأمر بالتقوى، ويقابل هذا لفظ العبادة وما إليه من صيغ جذره اللغوي ثماني مرات في سورة الأنبياء، وأربع في المؤمنين، وهذه المفارقة الإحصائية شبيهة الدلالة بما ذكرناه من مناسبة البعث

(٧٢) ينظر: الأندلسي، البحر المحيط، ج: ٧، ص: ٥٦٧.

قبل كل منهما، فقد قال في الأنعام: "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو"، فجعل الدنيا صفة للحياة على غرار وصف الدار بالآخرة مع مراعاة تأكيد الدار باللام في السياقين، و"ما وإلا"، في السياق الأول، كما قال في الأعراف "والدار الآخرة"، بعد قوله: "ياخذون عرض هذا الأدنى" فجعل الأدنى صفة للمشار إليه المحذوف، وهو الدار الدنيا، فشاكل أن يقول بعده "والدار الآخرة"، أما الإضافة في يوسف فلم يتقدم عليها مثل ما تقدم آيتي الأنعام والأعراف^(٧٥)، وما قبله هو قوله: "أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله"، والساعة هي الساعة الآخرة، وهي القيامة، فلما ذكرت الدار أضيفت إليها فكأنه قال: "ولدار الساعة الآخرة خير"، وهذا على وفق ما يراه البصريون: لأنهم لا يجيزون إضافة الشيء إلى نفسه^(٧٦)، ومما صح عند الكوفيين اختلاف الاسميين، قال الفراء: "وقوله: « ودار الآخرة»، أضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة وقد تضيف العرب الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله: «إن هذا لهو حق اليقين»، والحق هو اليقين، ومثله: "أنتيك بارحة الأولى، وعام الأول، وليلة الأولى، ويوم الخميس"^(٧٧)، أو في قولهم: هذا صحة ظاهره: لأن عدم التأويل أسلم من التأويل، مع وجود ما يؤيد هذا اللون من الإضافة في القرآن الكريم وكلام العرب.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَجِدُ فِي مَآ

جفائك إلا بالوفاء"^(٧٨)؛ لأن السياق يقتضي أن يختتم كل آية بما ختمت به، ذلك أن آية النحل في سياق ذكر صفات الله، وتعداد نعمه، وآية إبراهيم في سياق وصف الإنسان، وذكر صلته بالله^(٧٩)، قال تعالى: ﴿وَاللَّائِمَةَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٥]، فذكر نفسه تعالى بالغفران والرحمة من صفاته، وذكر قدرته ونعمه على عباده الذين ذكرهم بعصيانهم في سورة إبراهيم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْجَهَنَّمَ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، ثم ختم هذا القول كله بما ذكره من ظلم الإنسان لنفسه، وكفره بالنعمة تحذيرًا لعباده المؤمنين من الوقوع في ضلالة من يقع في مغبة هذا الذنب الكبير.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَكَيْفُةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ دَلْدَارٌ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]، فحصل الاستبدال بين التراكيب الاسموية: "والدار الآخرة، وللدار الآخرة"، وذلك بإضافة الدار إلى الآخرة في آية يوسف، ووصف الدار بالآخرة في الآيتين الأخريين، وفي هذا الوصف مطابقة لما تقدم

(٧٣) الرازي، التفسير الكبير، ج: ١٩، ص: ١٠٠.

(٧٤) ينظر: أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج: ٢، ص: ٧١٩.

(٧٥) ينظر: الغرناطي، ملك التأويل، ج: ١، ص: ٤٤٩-٤٥٠.

(٧٦) الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ٢، ص: ٨٩.

(٧٧) الفراء، معاني القرآن، ج: ٢، ص: ٥٦.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ [البقرة: ١٧٣]، فقد صرح بلفظ جلالته: لأنه قال في الآية التي قبل "واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون"، وربما أفاد الإحصاء في ترجيح كل من اللفظين للسياق الطويل في سورته، فقد تردد لفظ الجلالة في البقرة أكثر مما في الأنعام، وتردد لفظ "رب"، في الأنعام أكثر مما في البقرة، فلا يخلو هذا التباين من ترشيح كل من اللفظين كما سبق في مقامه وموضعه من السورتين.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لُعْنَتِي إِيَّايَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٧-٧٨]، وقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَلْعَنَةَ إِيَّايَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]، استبدل "لعنتي؛ باللعنة"، فأضاف اللعنة إلى نفسه تعالى فأكسبها تعريفاً إلى أصلها النكرة، وهي في الآية الأخرى معرفة بـ"أل"، وإضافتها إلى الياء متسق مع قوله قبل ذلك، متحدتاً عن نفسه: لما خلقت بيدي"، بيد أنه قد عرّف بألف ولام الجنس: لأن الأمر لم يكن كذلك، فقد تقدمه قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١]، بتعريف الإنسان والجان بهما أيضاً، ثم قال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الحجر: ٣٢]، بخلاف التنكير في سورة ص، فقد قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٦]، وهي لم تفتح بذكر الجن والإنس معرفين

أَوْحَىٰ إِيَّايَ مُحَرَّمًا عَلَيَّ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَاللَّحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]، فاستبدال لفظ الجلالة "الله" بالاسم المضاف إلى ضمير الخطاب "ربك" الذي عبر به عن رسوله، فوضع كل من اللفظين في مكانه، فلما كانت آية الأنعام واردة في سياق ذكر الأطعمة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَيَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فإن لفظ الرب أليق بهذا المكان: لأن الرب من التربية والتنشئة، وهو القائم بمصالح المربوب^(٧٨)، يقابل هذا ورود آية البقرة في سياق ذكر العبادة، قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]، ولفظ الجلالة ألصق بهذا المكان: لأنه من الألوهية، وهي العبادة، "فكان بما قدمه مثبتا عليهم إلهيته: لأن الإله هو الذي تحقق له العبادة بما له من النعمة"^(٧٩)، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَاللَّحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

(٧٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١، ص: ٤٤٠.

(٧٩) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ١، ص: ٣٢٢.

استبدال اسم الفاعل بالتركيب الفعلي:

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤَفَّكُونَ﴾ [٧٥] [الأنعام: ٩٥]. قال أولاً: "يخرج الحي من الميت" وقال: "مخرج الميت من الحي" والفرق بين الفعل المضارع واسم الفاعل إفادة الفعل الحدوث والتجدد، بخلاف اسم الفاعل فإنه يفيد الثبوت فقط، قال عبد القاهر الجرجاني: "إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد المعنى المثبت شيئاً بعد شيء"^(٨٠)، وقال: "وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء"^(٨١)، فاستعمل جل جلاله الفعل مع الحي، فقال: "يخرج الحي"، واستعمل مع الميت الاسم فقال: "مخرج الميت من الحي"، لأن الميت لا حركة فيه ولا تجدد فجاء اسم الفاعل الدال على الثبوت: فأبرز صفات الحي الحركة والتجدد، مقابل سكونية الموت^(٨٢)، وانقطاع الحركة به، وشببه بما تقدم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ

(٨٠) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: ١٧٤.

(٨١) المرجع نفسه، ص: ١٧٤.

(٨٢) ينظر: فاضل السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، ط١، ٢٠٠٢م، ج: ٣، ص: ٦٨.

بالألف واللام، كما في سورة الحجر، وكان الله عز وجل قد ذكر نفسه ست مرات في سورة "ص"، وثلاث مرات في سورة الحجر، الذي قال فيها: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، وقال في سورة "ص" مثل ذلك، وزاد عليه قوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]. وقال: "وإن عليك لعنتي"، فناسب كل من الاسم المعرف بالإضافة والمعرف بالألف واللام جو القصة التي ورد فيها، ومما يحتمل أنه قال في سورة ص: "وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين"، بالإضافة إلى النفس: لأنه غضب غضباً شديداً من إبليس الذي عصى أمره بالسجود لآدم، وهو من مخلوقاته بيديه العليتين: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، فأجابه إبليس بقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وجوابه الثاني في الحجر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، ومع كون المقام بصورتيه القرآنيين مقام غضب بيد أن الغضب في سورة "ص" أشد منه في الحجر، ولهذا ناسبه أن يضيف اللعنة إلى نفسه جل جلاله وتصريحاً وإشعاراً بأنه غريم العاصي المستكبر الذي استنكف من السجود بحضرته للإنسان الذي خلقه بيده العليتين ليكون خليفته في الأرض.

استبدال التركيب الإضافي بالضمير:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وقال في النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]. فقد وقع الاستبدال بين "آل لوط، وضمير غيبتهم"، وكان لوط ﷺ قد خاطب قومه بشدة وعنف، وجرم عليهم إتيانها، وكان تبكيته لهم أكثر في سورة النمل منه في الأعراف، فقد قال في النمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. وقال في النمل: ﴿إِنكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾. بزيادة همزة استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ، وقال في الأعراف: ﴿إِنكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾، فلما زيد في تعريف أولئك القوم بإتيانهم الفاحشة زادوا من طرف تنصيصاً على إخراج آله من قريتهم، وخلعوا رداء الحياء، وانتهوا من كل كناية (٨٦)، كناية الضمير في «أخرجوهم»، فكانهم قابلوا إنكاره وتقريعه بالتصريح بإخراجه مع ذويه وأهله، فإذا عرفنا أن السورتين مكيتان والأعراف أسبق في النزول، ترشح عندنا أن نصائح لوط قد تواترت وتصاعدت وكثرت، فقابلها القوم بالإعراض، وحكت عنهم الأعراف كنايةتهم

وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنعام: ١٣١]. فقد وقع الاستبدال بين "مهلك، وليهلك"، ووردت آية هود في سياق الكلام عن الحياة الدنيا وشؤونها وذكر سنة الله تعالى: فجاء بالفعل المضارع: لأن الأمم تتحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها بدلالة الفعل المذكور على ذلك، ويقابل هذا في الآية الثانية مشهد من مشاهد يوم القيامة، وصف به أحوال في دنياهم الأولى.

فقد وعد الله تعالى أنه لم يكن يهلكهم بظلمهم وهم غافلون لَمَّا يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا حِجَّةٌ (٨٣)، وذلك في سياق أمر مضى وانتهى في حياتهم الأولى، وإنما جاء باسم الفاعل مضافاً إلى "القرى": لأن في إضافة اسم الفاعل دلالة على المعنى (٨٤)، ومما يلحظ في الآية نفسها ورود "لم" الجازمة قبل فعل الكون الحاضر وهي ضميمية سياقية تقلب الحضور إلى المضي (٨٥)، ويفهم من هذا أن ذلك أمر حصل وتم في الدنيا، ثم انقطع فأصبح في الآخرة ماضياً يتحدث عنه النص القرآني، بوصفه تاريخاً من التواريخ وذكرى.

(٨٣) الفراء، معاني القرآن، ج: ١، ص: ٣٥٥.

(٨٤) ينظر: الزمخشري، شرح المفصل، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٢٠٠١م، ج: ٤، ص: ٢٧٥.

(٨٥) ينظر: عبد الله بن يوسف ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، ط: ١٩٨٥م، ص: ٣٦٧.

(٨٦) ينظر: فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: ٢٠٢٠.

تتشعب من فروع الأشجار، والأخريان مدهامتان من شدة الخضرة^(٨٨)، والأوليان فيهما من كل فاكهة زوجان؛ والأخريان فيهما فاكهة ونخل ورمان، وكذا صفات الحور في الأوليين أبلغ من صفاتهن في الأخريين، فالأوليان فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان، وفي الأخريين حور مقصورات في الخيام، وأرباب الأوليين متكئين على فرش بطائنها من استبرق، وأرباب الأخريين متكئين على رفرق خضر، وكل أحوال التفريق بين الجنات الأربع دالة على أن المؤمن الأول أكرم منزلة عند الله من المؤمن الثاني، ولذلك حُصت جنتاه بالعينين الجاريتين، وحُصت جنتا الآخر بالعينين النضاختين اللتين تفوران وتجيشان، ثم يعقب ذلك همود وشحة ماء، قبل معاودة الفوران والجيشان وهكذا. والسياق لا يمنع "لحاله على هذا النحو أن يكون الوصف باسم الفاعل: "نضاختان" مما تصح به الفاصلة أيضًا، ولكن الملحظ الإعجازي الذي تؤديه صيغة المبالغة إشعار للمتأمل بأن النضخ لن يكون في حينه من الشحة والانقطاع والمعاودة بحيث يشعر بتقليل شأن الجزاء الذي يصيبه المؤمن الثاني مما يمكن أن تشعر به صيغة اسم الفاعل، وقصارها الوصف الثابت بحده المقتصد دون الحد المبالغ فيه والمؤثر عليه بالصياغة الأخرى؛ وبهذا اتسق كل سياق بما ورد فيه من وصف هو أشبه به وأبلغ في أداء دلالاته.

عن آل لوط بضميرهم، حيث فكروا بمعاقبة نبيهم، فلمَّا زادوا في الجهر بإتيان الفاحشة وزاد لوط التويخ والتقريع قابلوه في النمل بالتصريح بإخراجه مع آله من القرية، تصعيديًا لغضبهم منه بمقدار غضبه منهم، واتساقًا معه، بحيث لم يبق عندهم من حياء يحملهم على التعريض دون التصريح؛ فجاءت العبارات متسقة مع كل سياق وردت فيه فحققت ترابطًا نصيًّا وانسجامًا دلاليًّا.

استبدال صيغة المبالغة بالتركيب الفعلي:

ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وقال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، والجريان أكثر من النضخ الذي هو شدة فوران الماء في جيشانه، فقوله: نضاختان، أي: فوارتان بالماء^(٨٧)، والجنتان اللتان وصفهما الله بأن فيهما عينين تجريان مخصصتان لمن خاف مقام ربه، واتقى ونهى نفسه عن الهوى، ولمن خاف مقام ربه جنتان، والأخريان اللتان وصفتا بأن فيهما عينين نضاختين هما دون تينك الجنتين قال تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وأراد أن يسكنهما من هو دون الأول في التقوى، لذلك فإن صفات الجنتين الأخريين دون صفات الجنتين الأوليين، فالأوليان: ذواتا أفنان: أي أغصان

(٨٧) ينظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط١٣٨١هـ، ج: ٢، ص: ٢٤٦.

(٨٨) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج: ٤، ص: ٤٥٣.

استبدال التركيب الفعلي بشبه الجملة:

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، فقد وقع الاستبدال بين التركيب الفعلي "يكذبون"، وشبه الجملة "في تكذيب"، وشبه الجملة دال بطبيعته النحوية على الدوام والثبات^(٩٨)؛ وذلك لأن الخطاب لقوم فرعون وثمود، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [فرعون: ١٧] و﴿تَمُودَ﴾ [١٨]، وهؤلاء كانوا ثابتين مستمرين في تكذيبهم للرسولين موسى وصالح عليهما السلام، وقد ظلوا على هذه الحالة إلى حين إهلاكهم، فكان التعبير بشبه الجملة أليق بهم في وصف حالتهم، بيد أن التعبير في التركيب الفعلي في آية الانشقاق: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾ [٢٢]، دال على التجدد والحدوث، بدلالة الفعل المضارع على ذلك^(٩٩)؛

لأن الخطاب للكفار في زمن الرسول ﷺ وقد قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠-٢١]، ثم قال بعدها والله أعلم بما يوعون فبشرهم بعذاب أليم؛ وهؤلاء المشركون لم يكن التكذيب صفة ثابتة فيهم، لأنهم كانوا يولون النبي ﷺ تقديرًا لصدقه وأمانته في بعض المواقف التي تتحدث عنها كتب السير، ثم كان تكذيبهم لدعوته يتجدد فيهم

حيثاً بعد حين عند تقدمه رويداً رويداً، وربما كان التعبير بالجملة الفعلية هنا ورجاء وانتظار لإعادتهم النظر في كفرهم وشركهم، والانقلاب من ذلك إلى الإيمان، مع ملاحظة أثر الفاصلتين في كل من السورتين، ذلك أن الفواصل القريبة تنتهي بحرف الدال، ومخرجه كما هو معروف قريب من مخرج الباء؛ لأن الأول أسناني لثوي^(٩٩)، والآخر شفوي^(٩٨)، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ﴾ [١٣] وَهُوَ الْعَظِيمُ الْوَدُودُ﴾ [١٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [١٥] فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [١٦] هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [١٧] فِرْعَوْنَ وَتَمُودَ﴾ [١٨] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩-٢٢]، والفواصل القريبة من آية الانشقاق جُلها فعلية أفعالها مضارعة تنتهي بالواو والنون، وذلك قوله قبل هذه الآية: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [٢١] وبهذا يكون كل من التعبيرين لائقاً بمكانه.

استبدال التركيب الفعلي المبني للمعلوم بالتركيب الفعلي المبني للمجهول:

ومنه قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(٩١) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة - الدار البيضاء، ١٩٩٤م، ص: ٧٩.

(٩٢) ينظر: المرجع نفسه، ص: ٧٩.

(٩٨) ينظر: سيبويه، الكتاب، ج: ١، ص: ٣٣٠.

(٩٩) الفراء، معاني القرآن، ج: ١، ص: ١٠٩.

وتحذير ولذلك سُمِّي الفاعل^(٩١)، فكان لأثقا بمكانه، فضلاً عن عدم وقوع فعل مبني للمجهول قبل جُمل التصريح به: وطبع الله على قلوبهم، كما هو في الأخرى.

وبناء على ذلك فإن للاستبدال دورًا مهمًا في ترابط أجزاء النص القرآني؛ لأنه علاقة قبلية بين عنصر سابق وعنصر لاحق له، فيعد بذلك عاملًا من عوامل التماسك النصي في تحقيق الربط النحوي والمعجمي من خلال استبدال لفظة بأختها مع المحافظة على سياق الكلام وانتظامه داخل النص القرآني، ويتمثل هذا الدور في تتبع العبارات والجمل في سياقات النصوص القرآنية ضمن البنية الكبرى للنص، ومعرفة نوعه اسمي، أو فعلي، أو جملي، ودراستها وتحليلها وتأويلها وفق بُعدي: الاتساق والانسجام الذي يتمثل في بُعد دلالي وبُعد تركيبِي، كما يختزل الاستبدال في النص عنصري التكرار والحذف، وبهذا يؤدي إلى الإيجاز، ويسهل به تقريب المعاني، ودلالات الألفاظ للقارئ، كما يهدف إلى توليد الجمل عن طريق إحلال عنصر لغوي مكان آخر، وهذا ما يؤدي إلى التغيير والتنوع في البنية الشكلية والعبارات والتراكيب الداخلية، كما يحقق تنوعًا فريدًا في الدلالات على مستوى الأسماء والأفعال والتراكيب والصيغ في السياقات المختلفة؛ وبذلك يعد خطوة جليّة في تحقيق الاتساق والانسجام.

فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ [التوبة: ٩٣]، وقد وقع الاستبدال بين "طبع الله ، وَطَبِعَ"، والطَّبِع يقال على وجهين: مصدر حَتَمْتُ وطبعت، وهو تأثير الشيء كُنقش الخاتم^(٩٣)، وطبع الله على قلبه أي ختم عليه، فَمَا يعي وَعَظًا وَلَا يُوَقِّقُ خَيْر^(٩٤)، وقوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، قد وقع بعد قوله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولَئِىَ الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ترشيح لاستعمال بناء الفعل المبني للمجهول بقرينة "أنزلت"، لتناسب بين الصيغتين في الآيتين^(٩٥)، ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً﴾، أنه تعالى هو المنزل الذي لا يحتاج في السياق إلى ذكره، بقيام مفعوله مقام فاعليته، ومنها الطبع على القلوب بعد إنزال السورة؛ لأن كل الأفعال محمولة عليه بحكم الضرورة، وإنما صرح بذكره في الآية الأخرى إشعارًا وتأكيّدًا. وبالنظر في قوله: "إنما السبيل..."، وبملاحظة مجيء "إنما"، بعد النفي المكرر في قوله: "ليس على الضعفاء ولا على المرضى"، نعلم أن ذلك لنفي الحرج عمن تخلف عن الجهاد في سبيل الله لأحد المعاذير التي ذكرها دون غيرهم ممن لا عذر لهم، ولهذا قيل: "إنما السبيل..."، فكان هذا الموضوع موضع تنبه وتأكيد وتخويف

(٩٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: ٢٧٤.

(٩٤) ينظر الأزهرى، تهذيب اللغة، ج: ٢، ص: ١٠.

(٩٥) ينظر: أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج: ١، ص: ٢٣٣.

(٩٦) ينظر: الأصبهاني، درة التنزيل، ج: ٢، ص: ٧١٩-٧٢٠.

خاتمة:

بعد هذه الرؤية المتواضعة التي أوضحت فيها مدى قدرة الاستبدال على تحقيق الاتساق والانسجام في النصوص القرآنية ومدى ملاءمة كل نص لما جاء فيه من ألفاظ ضمن سياقاتها المختلفة، في ضوء المنهج الوصفي/التحليلي ومقاربات ونظريات اللسانيات وتحليل الخطاب التي اتضح بها إسهام الاستبدال في تماسك النص وانسجامه على مستوى أقسامه الثلاثة: الاسمي، والفعلية، والجملي؛ وبناء على ذلك فقد أفضى البحث إلى نتيجتين مختصرتين تتمثلان في ما يلي:

ذلك باستبدال لفظة بأختها مع المحافظة على سياق الكلام وانتظامه داخل بنية النص القرآني الكبرى، ويتمثل هذا الدور في تتبع ألفاظ الاستبدال في سياقات النصوص القرآنية.

● يختزل الاستبدال ظاهري الحذف والتكرار؛ وبهذا يؤدي إلى الإيجاز ويسهل تقريب المعاني، ودلالات الألفاظ للقارئ، وبه يتحقق نوع من الروابط النصية في اتساق وانسجام النص/الخطاب في سبيل تحقيق الاتساق والانسجام النصي.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، فنجد منها أن الاستبدال وسيلة مهمة من وسائل هي تماسك الخطاب وانسجامه، كما أنه عامل أساس في توليد دلالات النص وتنوعها في ظل السياقات المختلفة، وعليه فإن الدراسات اللغوية والنصية والتداولية خاصة في جانب النص القرآني تحتاج إلى مزيد قراءات متعددة تبين مدى فاعليتها؛ لأن دلالاته متجددة عبر الزمان، وتختلف باختلاف آليات اللغة ومناهجها الحديثة، كما يجب صرف النظر نحو تدبر هذا البيان القرآني ليظهر ما يميزه عن سائر النصوص في انتظام ألفاظه ودقه معانيه، وتكثيف البحث في الموضوعات الجزئية للنص

● يؤدي الاستبدال إلى توسيع دلالات النص، بخلاف الحذف والاشتمال اللذين يؤديان إلى الاختصار.

● يعد الاستبدال من عوامل الإقناع، شريطة الالتزام بالتنوع، أي بصيغ شتى وسياقات متنوعة ليكون أكثر فاعلية في الإيحاء المستمر؛ لأنه يجنب السامع/القارئ الملل والسأم، ويذكره باستمرار الهدف، ويعمق النوعية بالمعنى المقصود منه.

● يعد الاستبدال عاملاً مهمًا من عوامل ربط النصوص فيؤدي إلى تماسك الخطاب وانسجامه مع إضافته دلالات متعددة على النص توكيدًا للمعنى واهتمامًا به؛ ويأتي

البحر المحيط، تح: صدقي محمد جميل،
دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.

٩. أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن،
تح: محمد فؤاد سزگين، مكتبة الخانجي -
القاهرة، ط١٣٨١هـ.

١٠. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري،
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،
تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم
للملايين - بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.

١١. أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ملك التاويل
القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه
المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع
حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي،
دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٢. أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ملك التاويل
القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه
المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع
حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي،
دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٣. أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان
عن تفسير القرآن، تح: الإمام أبي محمد
بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت،
ط١، ٢٠٠٢م.

١٤. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، كلية
العلوم-جامعة القاهرة، د.ت.

١٥. الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن

القرآني، لما يساعد في الكشف عن
أسرار هذا الكتاب الحكيم.

البيبلوغرافيا:

١. إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن
وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شليبي، عالم
الكتب - بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢. إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر -
بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٣. ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ط٤، د.ت.

٤. ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى
السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير
الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر -
تونس، ١٩٨٤م.

٥. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح:
عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٦. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده،
المخصص، تح: خليل إبراهيم جفال، دار
إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

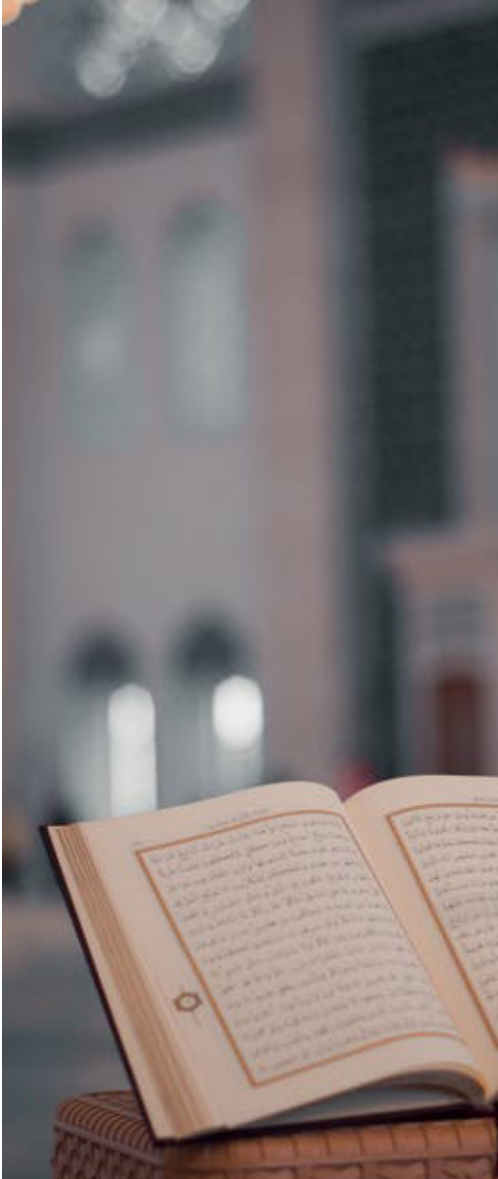
٧. أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى
مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث
العربي - بيروت، د.ت.

٨. أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي،

٢٤. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق الخطابية النبوية نموذجاً، مجلة علوم اللغة، ج: ٩، العدد: ٢، ٢٠٠٦.
٢٥. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط ٣، ١٩٩٢م.
٢٦. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٢٧. عبد الله بن يوسف ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تح: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، ط ٦، ١٩٨٥م.
٢٨. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتيقان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م، ج: ٣، ص: ٣٩٣، والسيوطي، معترك الأقران، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
٢٩. فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار-عمّان، ط ٤، ٢٠٠٦م.
٣٠. فاضل السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، ط ١، ٢٠٠٠م.
٣١. فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص أثر العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
١٦. الأندلسي، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
١٧. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة - الدار البيضاء، ١٩٩٤م.
١٨. الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم-بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.
١٩. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب- القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
٢٠. زتسيسلاف وأورزيناك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣.
٢١. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
٢٢. الزمخشري، شرح المفصل، قدم له: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
٢٣. سلمان عباس عيد، تقويم الفكر النحوي عند اللسانيين العرب، دار الكتب العالمية بيروت، د.ت.

٤٠. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي-بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

1. Halliday & Ruqaiya Hasan (1976), Cohesion in English. London Longman Grou.



السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نيوى- دمشق، ٢٠١١م.

٣٢. الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، ط١.

٣٣. محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، د.ت.

٣٤. محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٥. محمد بن عبد الله الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتح: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠١م.

٣٦. محمد بن عمر بن الحسن الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣٧. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

٣٨. محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار الشروق- القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٣٩. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط١، ١٩٩١م.